وقد التفت المتنبي إلى شرقي الأمبراطورية الاسلامية المترامية فقال:

أين الأكاسرة الجبابرة الأولى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا؟
من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق

والتفت إلى غربيها فقال:

أين الذى الهرمان من بنيانه؟ ماقومه؟ مايومه؟ ماالمصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

إنما كان أدباء العربية إذا جزعوا لضعف الانسان وقصر مدته وشرور مجتمعه، يجدون مفزعهم من الحزن والقنوط فى «الفضيلة الاجتماعية»: فى الأخلاق القويمة التى تكسب الإنسان حسن الأحدوثة الموروث حبها عن العرب الأقدمين، وتنجيه من شرور المجتمع الذى لا يد له بإصلاحه، والذى لا تنال شروره عادة إلا من يستهدف لها بسوء فعله، وتكسبه رضى ربه وتضمن له عقبى الدار. ومن ثم زخر الأدب العربى بروائع الحكم ونبيل التمدح بمكارم الأخلاق، وهذا باب من أشرف أبواب الأدب العربى وبه يمتاز على غيره، ومن محاسن ما فيه من ذلك قول إياس بن القائف:

إذازرت أرضاً بعد طول اجتنابها فقدت صديقى والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر مادمتما معا كفى بالممات فرقة وتنائيا

وقول الشريف:

لغير العلا منى القلى والتجنب
ولولا العلا ما كنت فى العيش أرغب
غرائب آداب حبانى بحفظها
زمانى، وصرف الدهر نعم المؤدب

فالعرب كانوا منذ جاهليتهم أمة اجتماعية ذات ميل غريب إلى الاجتماع، وفضيلة اجتماعية أصيلة، واستعداد متمكن للتحضر والتعاون. وأن يكونوا أمة مصلحة، يأنسون بالاجتماع ويتفاخرون بحسن الجوار وسيادة العشيرة وخدمتها معاً، ويشتغلون بمتعات تلك الحياة الاجتماعية عن طول الندب لنقائص الحياة وشوائبها، وطول التشكك والتحير فى منشأ الكون ومنتهاه، وميلهم الطبيعى ذاك واضح الأثر فى شعر شعرائهم. وفضيلتهم الاجتماعية تلك هى مرجع ازدهار العمران فى كل بلد وطئوه، حالما وطئوه، على حين نشر الأغريق الخراب فى شرقى البحر الأبيض حين هبطوه، واستغرقوا قروناً طويلة فى الاستقرار وتشرب الحضارة؟

فتحى أبو السعود

ضوء جديد على مأساة شهيرة

٢ - هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى؟

نظرية الاختفاء كما يشرحها الدعاة الدروز

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وقد رأينا فيما تقدم أن الدعاة الملاحدة، أعنى حمزة بن على وصحبه، ألفوا فى اختفاء الحاكم فرصة لإذكاء الدعوة وتغذيتها، واتخذوا من هذه الاختفاء وظروفه الغامضة، مستقى جديداً للزعم والارجاف؛ فزعموا أن الحاكم لم يقتل ولم يمت، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء، وسيعود عند ما تحل الساعة فيملأ الأرض عدلا، وأضحى هذا الزعم أصلا مقرراً من أصول مذهبهم. وقد انتهت إلينا فى هذا الزعم — أى زعم الغيبة والرجعة، وثيقة هامة بقلم كبير الدعاة حمزة بن على ذاته، وفيها يشرح لنا ظروف هذا الاختفاء ويواعئه على ضوء دعوته وأصول مذهبه، وإليك ما جاء فى تلك الوثيقة الهامة التى تقدم رغم غرابة شروحها ومزاعمها إلى المؤرخ مادة للتأمل:

يقدم إلينا حمزة رسالته بهذا العنوان: «نسخة السجل الذى وجد معلقاً على المشاهد فى غيبة مولانا الامام الحاكم»، وهى التى يفتتح بها رسائله فى متن الدعوة وأصولها حسبما أشرنا فيما تقدم

ويؤرخ الداعى هذه الرسالة بشهر ذى القعدة سنة ٤١١ هـ، أعنى عقب اختفاء الحاكم أو بعده بأيام قلائل، ويفتتحها بدعوة الناس إلى المبادرة «بالتوبة إلى الله تعالى وإلى وليه وحجته على العالمين وخليفته فى أرضه وأمينه على خلقه أمير المؤمنين»، وأنه قد سبق إليكم، أعنى إلى الناس، من الوعد والوعظ والوعيد من ولى أمركم وامام عصركم، وخلف أنبيائكم، وحجة باريكم وخليفته، الشاهد عليكم بموبقاتكم، وجميع ما اقترفتم فيه من الأعذار والانذار، ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع واهتدى وجاهد نفسه عن الهوى وآثر الآخرة عن الدنيا، وأنتم فى وادى الجهالة تسبحون، وفى تيه الضلال تخوضون وتلعبون، حتى تلاقوا يومكم الذى كنتم به توعدون»

وإن أمير المؤمنين قد أسبغ على الناس نعمه ولم يفر عليهم

شيئاً منها ، ولم يبخل عليهم بجزيل عطائه ، ولم يشاركهم فى شىء من أحوال هذه الدنيا ، نزاهة عنها ، ورفضاً منه لها على مقداره ومكنته لأمر سبق فى حكمته ، وهو سلام الله عليه اعلم به ، فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه مالم ينل مثله بشر من الماضين من أسلافكم . . . ولم تنالوا ذلك من ولى الله باستحقاق ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأنثى ؛ بل منة منه عليكم ولطفا بكم ورأفة ورحمة واختباراً ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، ولتعرفوا قدر ماخصكم به فى عصره من نعمته وحسن منته وجميل لطفه وإحسانه . وعظيم فضله دون من قد سلف من قبلكم »

وأنه قد أجرى عليهم الأرزاق والنعم من الذهب والفضة والخيل المسومة والأقطاع والضياع ، ورفعهم إلى ذرى المراتب وشرفهم بأرفع الألقاب ، حتى غدوا سادة يحكمون ويطاعون ، وغاشوا فى نعماء ورغد ، فأقبلوا على الدنيا واعتزوا بها ، وظنوا أنها سبيل الفوز فى الآخرة ، وتظاهروا بالطاعة فى حين أنهم متمسكون بالمعصية ؛ ثم يقول الداعى :

« ثم من نعمه الباطنة عليكم إحياؤه لسنن الاسلام والايمان ، التى هى الدين عند الله وبه شرفتم وطهرتم فى عصره على جميع المذاهب والأديان ، ومزيتم من عبدة الأوثان وابانهم عنكم بالذلة والحرمان وهدم كنائسهم ومعالم أديانهم . . . وانقادت الذمة إليكم طوعا وكرهاً فدخلوا فى دين الله أفواجاً ؛ وبنى الجوامع وشيدها وعمر المساجد وزخرفها ، وأقام الصلاة فى أوقاتها والزكاة فى حقها وواجباتها ، وأقام الحج والجهاد وعمر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الاسلام ، وفتح بيوت أمواله ، وأنفق فى سبيله ، وحفر الحاج بعساكره ، وحفر الآبار ، وآمن السبيل والأقطار ، وعمر السقايات ، وأخرج على الكافة الصدقات ، وستر العورات ، وترك الظلمات ، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات ، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً ، وفتح لكم أبواب دعوته ، وأيدكم بما خصه الله من حكمته ليحثكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام ، فشيختم العلم والحكمة وكفرتم الفضل والنعمة ، وآثرتم الدنيا كما آثروها قبلكم بنو اسرائيل فى قصة موسى عليه السلام ، فلم يجبركم ولى الله عليه السلام ، وغلق باب دعوته وأظهر لكم الحكمة وفتح لكم خارج قصره دار علم حوت من جميع علوم الدين وآدابه وفقه الكتاب فى الحلال والحرام والقضايا والأحكام ... وأمدكم بالأوراق والدواة والحبر والأقلام ، لتدركوا بذلك ما تمضون به وتستبصرون ... »

ثم يقول حمزة بعد أن يستعرض أعمال الحاكم على هذا النحو - إنهم - أى الناس ، لم يزدادوا إلا ضلالا وأثما ، وتمادوا فى غيهم وفجورهم ؛ وينعى على الناس هذه النازلة الأليمة ويحذرهم من عواقبها ، ثم يقول مشيراً إلى اختفاء الحاكم : « فقد غضب الله تعالى ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه من عظم إسراف الكافة أجمعين ، ولذلك خرج من أوساطكم ، قال الله ذو الجلال والاكرام : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وعلامة سخط ولى الله تعالى تدل على سخط الرب تبارك وتعالى . فمن دلائل غضب الإمام غلق باب دعوته ورفع مجالس حكمته ، ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره ومنعه عن الكافة سلامه ، وقد كان يخرج إليهم من حضرته ومنعهم لهم عن الجلوس على مصاطب سقائف حرمه ، وامتناعه عن الصلاة بهم فى الأعياد وفى شهر رمضان ، ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الآذان ولا يذكرونه ، ومنعه جميع الناس أن يقولوا مولانا ولا يقبلوا له التراب . وإنهاؤه جميعهم من الترجل عن ظهور الدواب ، ثم لباسه الصوف على أصناف ألوانه ، وركوبه الأتان ، ومنعه أولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة فى موكبه ، وامتناعه عن إقامة الحدود على أهل عصره ، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم ، وهم عن جميع ذلك فى غمرة ساهون ...

ومن ثم « فقد ترك ولى الله أمير المؤمنين سلام الله عليه الخلق أجمعين سدى ، يخوضون ويلعبون فى التيه والعمى الذى آثروه على الهدى »

ويختتم الداعى رسالته الغريبة بتكرار الدعوة إلى التوبة والاستغفار ، وأن يتجه المؤمنون بأبصارهم إلى الطريق التى سلكها أمير المؤمنين « وقت أن استتر » وأن يجتمعوا فيها بأنفسهم وأولادهم ، وأن يطهروا قلوبهم ، ويخلصوا نياتهم لله رب العالمين ، وأن يتوسلوا إليه بالصفح والمغفرة وأن يرحمهم بعودة وليه إليهم . . . « والحذار الحذار أن يقفو أحد منكم لأمير المؤمنين أثراً ولا تكشفوا له خبراً ، ولا تبرحوا فى طريق يتوسل

جميعكم . . . فاذا أطلت عليكم الرحمة خرج ولى الله أمامكم باختياره راضياً عنكم ، حاضراً فى أوساطكم ، فواظبوا على ذلك ليل نهار قبل أن تحق الحاقة ويغلق باب الرحمة وتحل بأهل الخلاف والعناد النقمة ، وقد أعذر من أنذر . . . الخ » .

ويؤرخ الداعى رسالته بذى القعدة سنة إحدى عشر واربعمائة، وينعت نفسه فيها بمولى دولة أمير المؤمنين ، ويذيلها بالحث على نسخها وقراءتها والعمل بما فيها (١) .

وهذا السجل يعتبر وثيقة مدهشة ، وربما كان بروحه وأسلوبه أقوى رسائل الدعاة وأهمها ، ومما يلفت النظر بنوع خاص ما يطبعه من حرارة وأسى ، واذا كنا لا نستطيع أن نؤمن بأن الداعى يصدر فيه عن إيمان حقيق ، فانه ينم على الأقل عن براعة الداعى فى عرض مايريد أن يعتبره الناس أساساً لعقيدة مدهشة ، هذا إلى أن هذا « السجل » يعتبر وثيقة تاريخية هامة بما يقدمه إلينا عن أعمال الحاكم وتصرفاته المختلفة فى بادىء عهده ثم فى خاتمته .

على أنه مما يلفت النظر أيضاً أن الروايات الاسلامية والنصرانية ، المعاصرة والمتأخرة ، لا تشير أية إشارة إلى هذا « السجل » الذى يقول لنا الداعى إنه وجد معلقاً على المشاهد ، ولو وقعت مثل هذه العلانية فى اذاعة السجل بمساجد مصر لما أغفلت الرواية الاشارة إليها ، ولعل الدعاة حاولوا إذاعته فلم يفلحوا ، وقد اشتدت عليهم وطأة المطاردة عقب مصرع الحاكم كما رأينا فلاذوا بالاختفاء والاستتار . وأصدر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ولد الحاكم سجله الشهير الذى يتبرأ فيه من هذه المزاعم الخارقة التى قيلت فى أبيه وفى أسلافه ، وفيه يعلن اعترافه إلى الله « بأنه وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون اقتدارا ومربوبون اقتسارا ، لا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى ، وأن جميع من خرج منهم عن حد الأمانة والعبودية لله عز وجل ، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ؛ وأنه قدم انذاره لهم بالتوبة إلى الله من كفرهم ، فمن أصر فسيف الحق يستأصله

وإلى جانب هذه الوثيقة التى كتبها حمزة بن على عقب اختفاء الحاكم . والتى يحاول فيها أن يعلل هذا الاختفاء وأن يشرح بواعثه ، وأن يطمئن المؤمنين على رجعة سيده ومولاه، توجد بين رسائل الدعاة وثيقة أخرى عنوانها « الغيبة » تمس نفس الموضوع من ناحية أخرى ، وقد كتبت بعد اختفاء الحاكم بثلاثة أشهر عن لسان قائم الزمان (أى الحاكم بأمر الله) بقلم داع مجهول ، والظاهر أن كاتبها هو المقتنى أحد أكابر الدعاة وأحد « الحدود الخمسة » : وقد وجهت إلى أهل الشام خاصة ، وفيها يذكرهم قائم الزمان بالعهد الذى قطعوه ، ويحذرهم من الدجال الذى يزعم أن الألوهية انتقلت إليه ، والذى عاند الموحدين وحاصرهم ، ويقول إن الدين لا يصح إلا عند الامتحان ، ثم يخاطب الموحدين بقوله :

« معشر الموحدين ، إذا كنتم تحققون أن مولاكم لا تخلو الدار منه وقد عدمته أبصاركم . . . وإذا فسدت المعدة ضرت البصر ؛ فهكذا إذا كانت المادة واصلة إلى النفوس الصحيحة ، فينظروا صورة الناسوت نظراً صحيحاً ، وإذا كانت المادة من فعل الأبالسة ومادة النطقاء والأنس وشرائعهم فيفسد النظر وما ينظر إلا بشر

« واعلموا معاشر الموحدين لمولانا الحاكم المعبود سبحانه وتنزه عن الحد والمحدود أن قائم زمانكم يطالبكم ، وقد شهدتم فى مواثيقكم بعضكم على بعض بما شرطتموه على نفوسكم . . . » (١)

ثم يشير إلى أن كثيراً من الموحدين ارتدوا عما كانوا أقروا به وهو الاعتراف بألوهيته ، ويحذرهم من سلوك هذا الطريق ؛ ويشير إلى « الدجال » ويقول إنه قتل الكثيرين بسبب عبادة الحاكم ؛ وأن المولى غنى عن عبادتهم ، وإنما هى أعمالهم ترد عليهم .

ثم يقول : « ألم تعلموا أن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه .. معشر الاخوان أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم »

ويلوح لنا أن هذا « الدجال » المشار إليه فى هذه الرسالة إنما هو عبد الرحيم بن الياس ولى العهد ، ووالى الشام ؛ فقد اشتد فى مطاردة الدعاة ، حينما ظهرت دعوتهم بالشأم ، وفتك بكثير من أتباعهم وأنصارهم ، وهو ماتشير إليه الرسالة .

(النقل ممنوع — قيد البحث بقية) محمد عبد الله عنان

(١) لم ترد هذه الرسالة فى مجموعة دار الكتب والتى لدينا منها نسخة فتوغرافية (وهى محفوظة برقم ١٣٢ عقائد النحل) إذ ينقصها من أولها عدة أوراق ولكنها وردت فى مخطوط باريس ، ومنه نقلنا ونقلنا ماتقدم ، ثم وفقنا أخيرا إلى الحصول على نصها الكامل .

(١) وردت هذه الرسالة فى المجموعة المحفوظة بدار الكتب برقم ٤٠ عقائد النحل ؛ والمجموعة المحفوظة برقم ٢٠ عقائد النحل مع شرح لها .